مجلة العلوم القانونية والاجتماعية

Journal of legal and social studies

Issn: 2507-7333

Eissn: 2676-1742

الطقوس سياق لفهم الفعل الاجتماعي

Ritual as a context for understanding social action

شيخ علي[1]*، بودماغ خولة[2]

[1]جامعة ابن خلدون– تيارت (الجزائر)، shikh3ali@gmail.com

[2]جامعة قاصدي مرباح– ورقلة(الجزائر)، khaoulaasinat@gmail.com

تاريخ ارسال المقال:2020/07/12	تاريخ القبول:2020/07/01	تاريخ النشر:2020/09/01

*المؤلف المرسل

الملخص:

يمارس الأفراد ضمن إطار جماعات الانتماء نوع من الممارسات والنشاطات ذات الطابع الاجتماعي والديني، تكشف عبر صيرورتها وسياقها(الزمكاني) نمط عيش هؤلاء وظروفهم ضمن البيئة التي يتواجدون فيها، كما تكشف هذه الممارسات عن مضامين أفعال الأفراد وسلوكاتهم التي تتأسس وفقها هويتهم(الإثنيةوالجنوسية)، هذه الممارسات تندرج ضمن مسمى الطقوس والشعائر كعناصر ثقافية تساهم في كشف تمفصلات حياة الأفراد الاجتماعية واليومية الروتينية، وتعبر في سياق ذلك عن خصوصية الانتماء إلى المحلي والمتماثل مع الوسط الاجتماعي. وقد نالت الطقوس اهتماما كبيرا من قبل علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا نظرا لكونها تمثل مصدرا مباشر لفهم الفعل الاجتماعي ونتائجه الظاهرة والمضمرة، ونموذج توصيفي يكشف عن حيثيات عملية الاتصال والتفاعل بين الثبات والتحول في مرتكزاتها لدى الأسر والجماعات الاجتماعية، يحتضن المجتمع الجزائري تشكيلة واسعة من الطقوس تتسع ممارستها لتشمل(ما هو سحري، ديني، ثقافي واقتصادي)، معبرة بذلك عن التراث المحلي المتباين في(الخصوصية وطبيعة الممارسة والحدث الاحتفالي الذي من أجله قامت هذه الطقوس). سنحاول من خلال هذه الورقة البحثية تسليط الضوء على رمزية الطقوس والمعيش اليومي للأفرادكالسياق لفهم الفعل الاجتماعي.

الكلمات المفتاحية:الأنثروبولوجيا؛ علم الاجتماع؛ الطقوس؛ الاتصال؛ الفعل الاجتماعي؛ الممارسات الاجتماعية.

Abstract :

Within the framework of affiliation groups, individuals engage in a type of social and religious practices and activities, which reveals through its process and context (space time),the life pattern of these people and their conditions within the environment. Also These practices reveal the contents of individuals 'actions and behaviours according to which their identity (ethnic and gender) is established,These practices are named rituals and ceremonies as cultural elements that contribute to express the articulations of social and daily routine life of individual, and expressing the specificity of belonging to the local and similar with the social milieu. The rituals have received great attention from sociologists and anthropologists, as they represent a direct source to understand social action and its manifest and latent consequences, and a descriptive model that reveals the merits of the communication interaction process between constant and variation in its foundations among families and social groups,The Algerian society embraces a wide variety of rituals, its practice is extend to include (the magical, the religious, the cultural and the economic), expresses the contract local heritage in (specificity, nature of practice and the ceremonial event for which these rituals are perform). Through this research paper, we will try to shed light on the symbolism of rituals and the daily subsistence of individuals, and as a context for understand social action.

Keywords:Anthropology, sociology, rituals, communication, social action, social practices.

مقدّمة:

تشكل الثقافة الإطار أو الوعاء الذي تنتظم وفقه سلوكات وأفعال الأفراد والجماعات، حيث أن الثقافة بما تتضمنه من عناصر ومصادر متعددة ومختلفة تجسد مفهوم التكيف الاجتماعي والفيزيقي مع طبيعة الظروف التي تطرحها البيئة، فأنماطها(أي الثقافة)، وتجلياتها إنما تعكس صيرورة عملية التطور التي مرت به الإنسانية وإسهامات الإنسان في تطوير أساليب لمجابهة العالم المجهول والتخفيف من حدة الضغوطات النفسية والاجتماعية. فالأساليب التي أوجدها الإنسان ووضعها في خدمته وتحقيق رغباته وإشباعها ساهمت بشكل مباشر وغير مباشر في تأطير حياته اليومية في مختلف النواحي ولم تقف عند جانب واحد بل شملت(الترفيه، اللهو والاستراحة، التنظيم، التكيف، الحماية، تحديد الاختلاف وخصوصية الانتماء)، وبذلك فقد رسمت هذه الأساليب عبر مشروعيتها تخوم(الجائز والممنوع، المرغوب وغير المرغوب، المقدس والمدنس، المحافظة والتجديد)، وغيرها من الثنائيات التي يقوم عليها البناء الاجتماعي. فالطقوس كأساليب ونمط من الممارسات ترجمت مدلولات الفعل الاجتماعي برمزياته المتنوعة والمختلفة لدى الأفراد والجماعات وعكست في جوهرها مضامين كثيرة تمثلت في(سبب القيام بهذه الممارسات، نتائجها وأثرها على هوية الفرد الإثنية و الجندرية)، وقد سعت العلوم الاجتماعية في تشخيص هذا الواقع عبر الدراسات الميدانية التي أكدت على أن هذه الطقوس والممارسات إنما هي نتاج عملية تفاعل مستمر بين الإنسان وبيئته. **كيف تساهم الطقوس في بناء معالم الواقع المعاش للأفراد؟ وأين تتجلى مساهمتها في فهم الفعل الاجتماعي؟**

تتحدد إشكالية هذه الدراسة في تسليط الضوء على أهمية الطقوس كممارسات اجتماعية وثقافية ودورها في تفسير نمط العيش لدى مجتمع من المجتمعات، حيث تم إدراج مجموعة من الأهداف تعتبر كإجابة على الإشكالية المطروحة، حيث جاءت هذه الأهداف في الشكل التالي:

1 – الكشف عن رمزية الطقوس ومدلولاتها المختلفة(الاجتماعية والثقافية)، ومساهمتها في توضيح معالم نمط العيش لدى أفراد المجتمعات.

2– تسليط الضوء على إسهام الطقوس عبر ممارستها وتكرارها اليومي الروتيني في فهم الفعل الاجتماعي ضمن سياق مجتمعي معين.

✓ 1– رمزية الطقوس والمعيش اليومي للأفراد:

لقد ساهمت الأنثروبولوجيا بفروعها المختلفة وتعدد مجالات بحثها في الإلمام بتمفصلات حياة الأفراد داخل الأوساط الاجتماعية، محاولة منها في رصد طبيعة الاختلافات الموجودة، وقد أتت هذه المحاولات بالنجاح، وبذلك تكون الأنثروبولوجيا السباقة في الإحاطة الشاملة بظروف عيشهم(أي الأفراد)، وطبيعة الأساليب والوسائل التي يستخدمونها في تحقيق تكيف داخل البيئة الفيزيقية والاجتماعية التي ينتمون إليها. فالثقافة تشكل الوعاء الذي يقولب أفعال الأفراد وسلوكاتهم ويعكس مضامينها عبر رموز ومعاني التي يضفيها على أفعاله(**حيث أن البشر**

يتصرفون حيال الأشياء على أساس ما تعنيه تلك الأشياء لهم)، بمعنى أن الرمز يعكس طبيعة الممارسات التي يوظفها الأفراد لإعادة بعث التنظيم الاجتماعي **Social organization** ضمن السياق(الزمكاني)، "وبذلك ينظر إلى الثقافة بأنها الإطار المرجعي المعرفي للسلوك لدى مجتمع من المجتمعات ويدخل في إطار هذا السلوك كل السلوكيات التي تتطلبها الحياة الاجتماعية اليومية ذات العلاقة بالأكل والشرب واللباس والصحة والزواج والطلاق والتعاون والتنافس وغيرها من العمليات الاجتماعية والسلوكيات التي تؤطرها الثقافة."[1]

إن إسهامات الباحثين الأنثروبولوجيين(النظرية خصوصا الحقلية منها)، ساهمت في دراسة الواقع المعاش للأفراد ضمن نمط الثقافة التي ينتمون إليها، مؤكدين بذلك على أن لكل ثقافة ما يميزها من السمات والخصائص، وهنا نشير إلى أن الأنثروبولوجيا عبر الدراسات الحقلية(الميدانية واتصال الباحث بميدان الدراسة)، قد كشفت عن مسألة التنوع الثقافي وتحقيق مجموعة من الأهداف المتمثلة في(كشف خلفية التباين والاختلاف بين الأفراد والمجموعات على مستويات مختلفة- بيولوجيا، اجتماعيا وثقافيا، تصنيف النظم والأنساق وفقا لنمط الثقافة المتداولة، تفسير طبيعة الاختلاف بين الثقافات من خلال ربطه بالمنطقة الجغرافية وطبيعة العادات والتقاليد)، كذلك ساهم اتصال الباحث الأنثروبولوجي بميدان الدراسة من تشخيص نمطية الاتصال ونوع الأساليب المستخدمة في عملية الاتصال بين الأفراد والجماعات المختلفة، حيث" تشير الدراسات الأنثروبولوجية المهتمة بتطور فعل الاتصال والتواصل الإنساني إلى أن نظام الاتصال ببعده الإيمائي واللغوي شديدي الحضور في نقل الحضارة والحفاظ على الخبرة عبر الأجيال فنظام الاتصال الإيمائي التكنولوجي(المرئي الملموس)، الذي يعتقد بأسبقيته الزمنية عن نظام الاتصال اللغوي الشفهي(الكلام والاستماع)، وهو في بدايته تفاعل بين الإنسان ومحيطه البيئي، ثم ساهم بصفة مركزية في التواصل والتفاهم بين بني الإنسان بفعل تطويره للفعل الإشاري والمحاكاة والتمثيل الإيمائي والشرح العملي إلى مستويات العليا حيث الرمزية الإيمائية المشتركة، وبهذه الرمزية ساهم التمثيل الإيمائي بشكل مركزي أيضا في التفاعل المعرفي."[2]

✓ 1-1 الطقوس بين الوظيفة وتلبية حاجات الأفراد:

تشكل الطقوس مجموعة من الممارسات التي يتم توظيفها بطرق مختلفة لتحقيق مجموعة من الأهداف والغايات لدى أفراد الجماعة التي تمارسها(بصورة منتظمة، وتكشف عن الروتين اليومي الذي تندرج ضمنه هذه الممارسات)، كما أن تحقيق هذه الغايات يرتبط بإشباع حاجات الأفراد الاجتماعية وهي التي أكد عليها الباحث الأنثروبولوجي برونسلاومالينوفيسكيB.Malinowiskiفي أنالحاجات الأساسية للفرد وإشباعها ترتبط باشتقاق حاجات ثقافية جديدة، وأنه هذه الحاجات لا تتم إلا بإنشاء بيئة جديدة والمتمثلة في الثقافة. وباعتبار أن الطقوس عنصر ثقافي يشمل(الأفعال والأقوال)، فهي بالتالي توظف لتلبية متطلبات الأفراد والمعبر عنها بالحاجات الإنسانية. ومما سبق فإن مالينوفيسكي يرى في الثقافة جهازا مكيفا ضخما يقوم عن "طريق التعويد وتزويد المهارات، وتعليم المعايير وتنمية الأذواق بمزج التربية بالاتجاهات الطبيعة. وعلى هذا فإننا نجد أنفسنا أمام كائنات حية(الأفراد)، من الصعب تحديد سلوكها بالدراسة التشريحية أو الجسمية فقط وإنما بالدراسة الاجتماعية.

وهكذا نجد أن الثقافة في رأيه، عبارة عن كيان كلي وظيفي متكامل يماثل الكائن الحي، بحيث إنه لا يمكن فهم دور أو وظيفة أي عنصر من أعضائه إلا في ضوء علاقته بباقي أعضاء الجسم."[3]

فالطقوس هي "ممارسات اجتماعية مشتركة تتداولها الجماعة البشرية، وتؤديها في ظروف محددة، تعيد تحيينها وفقا للعناصر الرمزية المرتبطة بقدسية الطقس، والغرض من أدائه، وهي بذلك وثيقة الصلة بالمخيال الاجتماعي للجماعة البشرية، أو بمعنى آخر، الرأسمال الرمزي لها، حيث أن الطقوس مهما كانت طبيعتها، جزء لا يتجزأ من المعتقد الشعبي، أو بالأحرى الثقافة الشعبية للجماعة البشرية، وهنا يسعى الطقس في جوهره إلى تكرار واستدامة القواعد التي تثبته، ويعمل في وقت ذاته على تكريس ديمومة الحدث التاريخي، الاجتماعي أو الأسطوري الذي أوجده، وهو ما أكده فان درلو Vander lew من خلال قوله أن الطقوس تعني في جوهرها إحياء وتحيين لتجربة مقدسة، فالطقوس من هذا المنظور أساطير تتحرك، لأن الأسطورة مؤسسة للفعل المقدس، حيث تستبقه وتضمن بقاءه، وهنا، فإن القيام بأي أسلوب طقسي جديد لتجربته الأولى."[4]

إن طقوس كممارسات وأفعال متكررة ترسم المعيش اليومي للأفراد عبر طبيعة الوظائف التي تؤديها باعتبارها عنصر ثقافي يهدف إلى صياغة أفعال الأفراد والجماعات عبر صور مختلفة، وبالتالي فهي(أي طقوس)، تمارس ضمن إطار يرتكز على نمط الثقافة وطبيعة الخصائص والسمات التي تميزها، ونشير في هذا الصدد إلى إسهام روبرت مرتون R Merton. حول مفهوم الوظيفة الظاهرة والوظيفة الكامنة، فالطقوس تؤدي كلتا الوظيفتين، حيث أن الوظيفة الظاهرة للطقوس ترتبط بدوافع الفرد أو الجماعة في القيام بها، وبذلك تكون نتائجها مقصودة في حياتهم اليومية(منفعة، تجنب المخاطر، الوقاية من الأمراض، تحصين النفس، مجابهة المكتوب والقدر، وغيرها حسب طبيعة الطقس الممارس)، أما الوظيفة الكامنة فنتائجها غير مقصودة أو غير مدركة في وعي الأفراد، فإبراز خصوصية ثقافية ما، قد يدخل ضمن الوظيفة الكامنة للطقس أو الشعيرة الممارسة. ومن هنا يمكن القول أن الطقوس تعني في جوهرها قيام الأفراد أو الجماعات الاجتماعية بمجموعة أفعال رمزية ومشفرة، بهدف التعبير عن طائفة من المعاني التي يخترقها معنى رمزي، وتتقيد إلى حد كبير بطابع هذا المحتوى وقوانينه، وغالبا ما تؤدي هذه الأفعال الرمزية، المشفرة في مناسبات متلاحقة، محددة زمانيا ومكانيا، وهو ما يكسب الطقوس الطابع الصارم والمقبول. ناهيك عن الجمالية الخاصة التي تقحم مؤديها في عالم من القدسية، ويعايش هذا العالم طوال فترة أداء الطقس، ما من شأنه أن يعزز فيه البلاغة الرمزية."[5]

✓ 1- 2 الطقوس والإرث الثقافي المادي والرمزي:

تعبر الطقوس في الحياة اليومية عن الإرث الثقافي الذي يتم تناقله من جيل إلى جيل، حيث يخزن المجتمع قيمه ومعاييره بنقلها إلى الأجيال الأخرى، مما يؤدي إلى المحافظة على هذا التراث، وهنا نؤكد على فكرة الممارسة لتكرار التجربة المعاشة، والتعبير عن التراث المنقول عبر صيغ مختلفة تظهر معالمها عبر صيرورة(العادات والتقاليد)، التي تعتبر أبرز الصور التي يتجلى فيها الفعل الطقسي، فالعادات والتقاليد هي الممارسات المتداولة والتي يتم إحيائها في كل مناسبة احتفالية(دينية كانت أو اجتماعية)، فالعادات والتقاليد تعتبر عنصر مهم في بناء صورة الحياة الاجتماعية، فالفرد يمارس عاداته وتقاليده بناءا على ما ورثه من جيل الأجداد والآباء، فهي جوهر الحياة داخل

أي ثقافة من الثقافات. وبذلك، "تصبح العادات والتقاليد أهم العناصر الثقافية التي تعبر عن مسألة التنوع داخل المجتمع الواحد وتعتبر سمة وخاصية تبين أوجه الاختلاف عن الآخر."[6]

يحيل الطقس عبر(العادات والتقاليد)، إلى إبراز صورة المجتمع الذي يحتضنه والعرف المتبع داخله، فالمحافظة على الطقوس ترتبط بإسهام الجماعة المسئولة عن(الفرد)، في دمجها ضمن سياق إعداده وتنشئته عبر ترسيخها عمليا في وعيه من خلال ممارستها في كل مناسبة معلومة، وبذلك يسهل تقمصها وتبنيها عن طريق التكرار. فالاشتراك في ممارسة الطقوس يعني الاشتراك في قيم المجتمع والاشتراك في تراث الأجيال، والإحساس بالاستمرارية أو الديمومة، "فعندما يقوم باحث أنثروبولوجي بسؤال المجتمعات البسيطة عن سبب قيامهم بتلك الطقوس فإنهم يقولون أن أسلافهم كانوا يفعلون ذلك، وأن الطقوس قد تكون لفظية أو حركية وتضم الاثنين معا. حيث" تشغل الطقوس حيزا كبيرا في المجتمع الجزائري فهي تمثل جزءا كبيرا من مقوماته وعنصر من عناصر ثقافته، فهي أشكال للتعبيرات الجمعية. وهي أيضا تمثل الثقافة الشعبية وذلك الكم الهائل من المخزون الثقافي الشعبي تداولته أجيال عبر عصور خلت، إلى أن حط رحاله في زمن العولمة والتكنولوجيا المتطورة، زمن حاول أن يفصل بين الإنسان وطقوس كانت من إبداعه في فترة من الفترات مكونا معها علاقة اعتباطية فهي كورقة بيضاء ذو وجهين لا يمكن فصلهما."[7]

✓ 1-3 الطقوس وتأطير شؤون الأفراد في الوسط الاجتماعي:

يخضع الفرد في حياته اليومية لجملة من المصادر تعتبر بمثابة أدوات لها دور في تنظيم شؤونه بما يتناسب مع المرجعية الاجتماعية للمجتمع ونمطية الحياة. فالطقوس تعتبر وسيلة لتنظيم شؤون الأفراد في أطوار حياتهم المختلفة، فمثلا الأسرة الجزائرية تحتضن مجموعة من الممارسات(أي الطقوس). تكفل من خلالها تنظيم شؤون أفرادها في أطوار حياتهم المتعاقبة، إذ أن الانتقال من وضع بيولوجي إلى وضع اجتماعي، يحتم على الأسرة القيام بممارسات وطقوس ذات أصول دينية واجتماعية خالصة تتصل اتصال وثيق بعملية التنشئة الاجتماعية وهنا نشير إلى أن (الطقوس هي إعادة تشكيل أو تنظيم اجتماعي لمسألة الفروقات والاختلافات الجندرية والهوية الجنوسية)، بمعنى أن الطقوس تكفل توضيح معالم الاختلاف بين ما هو ذكوري وما هو أنثوي عبر تلك الممارسات ذات صبغة التوليفية لإخضاع الفرد لسمات وخصائص الثقافة التي ينتمي إليها وطبيعة النسق الاجتماعي الذي يحتضنه، وباعتبار الطقس له صلة وثيقة بالدين فهو يعتبر مصدر لضبط الأفراد وسلوكاتهم" حيث يضبط الدين سلوك الأفراد في المجتمع بالثواب والعقاب لا في الحياة الدنيا فحسب بل في الدار الآخرة فمن المعروف أن الطقوس والممارسات التي تفرضها الديانات الكبرى تعتبر ضوابط اجتماعية إيجابية للجماعات الإنسانية، فالصلاة في الإسلام مثلا تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، فهي وإن كانت فريضة دينية إلا أنها تهدف إلى تحقيق أهداف ومثل خلقية في ضبط السلوك الإنساني وكذلك الشأن بالنسبة للصوم في مختلف الديانات فهو من أهم وسائل الضبط الاجتماعي وما يصدق على هذه الطقوس يصدق على الزكاة باعتبارها أداة تنظيمية ذات أهداف اقتصادية في تدعيم مبدأ التكافل الاجتماعي والتساند الطبقي في المجتمع الإسلامي."[8]

ومنه، فإن الطقوس تشكل مصدرا لتنظيم شؤون الأفراد داخل الأوساط التي ينتمون إليها سواء(كانت(تقليدية أو عصرية)، فهذه الطقوس تتصل بعملية التنشئة الاجتماعية التي تستند في أبعادها على فكرة الإعداد الاجتماعي

للفرد(ذكر/أنثى)، عن طريق توضيح ما يناسب كل نوع وتفادي الخلل في هذه العملية، فالأسرة تتبنى أساليب وممارسات تحدد المناسب والأفضل لطفلها. ومن ذلك، تشكل الطقوس أحد المصادر المعتمدة من طرف الأسرة لتحقيق نمو جيد لأبنائها(الذكور والإناث)، فهذه الطقوس تختلف من مرحلة عمرية إلى أخرى وفي مدلولاتها أيضا،حيث أن الطقوس الممارسة في الأسرة الجزائرية تشمل(طقوس التسمية، طقوس الفطام والختان، وغيرها من الممارسات الطقوسية المتصلة بنمط الثقافة والدين)، وعلى العموم فإن هذه الطقوس تكرس فكرة الاهتمام والعناية بالفرد في مختلف النواحي(الجسدية، الخلقية والعقلية)، وتعكس عنصريين أساسيين هما: الاتصال والتفاعل ودورهما في توفير جو مناسب لنمو الفرد." فالتربية الأسرية تلعب دورا جوهريا وحساسا في خلق التقاربات والاختلافات في صناعة كلا المفهومين. استنادا على القيم المؤسسة والذهنيات المتوارثة تختلف مناهج التربية الجسدية للأنثى عن مناهج التربية الجسدية للذكر، كما تختلف هذه المناهج التربوية من طور حياتي لآخر. ومن ذلك تختلف من حيث الأدوات التربوية والأساليب، لا المبادئ. يحيلنا هذا المعطى إلى الحديث عن التربية كوعاء قيمي للضمير الجمعي أين تبلور فيه مراحل الوعي بالجسد: جسد مرحلي تطوري، مختلف وقابل للعطب."[9]

✓ 1-4 الطقوس بين الديني والسحري:

للطقوس علاقة وثيقة بالدين والسحر داخل المجتمعات وهي التي أكد عليها علماء الأنثروبولوجيا في دراساتهم الميدانية في أن طبيعة الممارسات التي يزاولها الأفراد لها صلة بالدين والسحر إلا أن الاختلاف بينهما يكون على مستويات مختلفة تتمثل في(الأهداف والغايات وحتى في طبيعة الأفعال ورمزيتها في المخيال الاجتماعي للأفراد). يشكل الدين مصدرا تقوم عليه أساسيات العيش داخل مجتمع من المجتمعات، فالدين يعبر عن المعتقدات والممارسات ذات الطابع الرمزي الجماعي التي تكفل للفرد إشباع حاجات مختلفة وتضمن تنظيم مجالات حياته المختلفة، حيث لا يخلو مجال إلا ويكون للنموذج الديني دور وأهمية داخله." فالدين هو نظام متكامل لتنظيم الحاجات الأساسية للكائن البشري. ودون رغبة للخوض في التفاصيل التحليلية لهذه الحاجات في الوقت الحالي، يمكن القول أنه يمثل إستراتيجية معرفية، شكلا من الإفصاح عن سلوكيات طقوسية، وضربا منظما من العقائد، فهو بالتالي تأويل محوري يلبي حاجة لاكتشاف العالم المفارق واختباره، وهو في النهاية آلية اجتماعية ثقافية لتحديد الهوية العرقية والسياسية وما شابهها."[10]

فالدين عبر تمظهراته وامتداداته ضمن السياقات(الزمانية والمكانية)، يعبر عن طبيعة العيش بواسطة أساليب ترسم للأفراد تخوم(الجائز والممنوع)، حيث أن الدين يشكل أحد نماذج الضبط الاجتماعي داخل المجتمع وأداة رئيسية تعتمد عليها الأسرة في تحديد المناسب لأبنائها(الذكور والإناث)، من طرق التصرف والسلوك، ونمط اللباس المناسب وغيرها، كما يعبر الدين عن الممارسات اليومية التي ترسم اللحظات المعاشة واليومية للأفراد والتي تتمثل في(تعبداتهم كصلاة، علاقاتهم البينية التواصلية، دخول الفضاء العام والخاص والأماكن الأخرى، اجتماعاتهم حول المائدة، طرق احتفالهم بالمناسبات والاحتفالات الدينية والاجتماعية)، وغيرها من التجارب اليومية التي يعيشها الأفراد، والتي تسمح للديني بالولوج إليها حتى تتحقق الغاية من ممارستها، وبذلك تظهر رمزية الدين عبر مجموعة الطقوس والشعائر التي تحمل صيغ دينية وتحيل إلى الفعل الجماعي، بمعنى أنها تتضمن فعلا تواصليا يتم من خلاله

إحياء تجربة مقدسة تدرك دلالتها ضمن المنظومة المعتقدية الخاصة بالجماعة." فالفعل الديني هو فعل طقوسي بكل امتياز، بل لن يتخذ الفعل الديني فعاليته إلا بواسطة الطقس الذي يولد الشحنة الرمزية ويملؤه بها. وبواسطة هذه الطقوس الدينية، تتم الإحالات الرمزية، وينتقل الفعل الرمزي من الدلالة المباشرة إلى الدلالة المنزاحة le sens écarte، بحيث أن فهم معاني الممارسات الطقوسية ودلالتها يتم من خلال عمليات من الإحالة الرمزية التي تضرب في عمق المتخيل الجماعي والديني وتحيل إلى أعماق الجمعي و archétypes الكامنة حسب تعبير(كارل قوستاف يونغ)."[11]

الطقوس عنصر أساسي في تركيبة وبنية الدين داخل المجتمعات الإنسانية حيث تكشف عبر تكرارها وممارستها عن خاصية الانتقال من مرحلة إلى أخرى، كما تكشف عن حوصلة المساهمات الجماعية التي تهدف إلى إرساء معالم التضامن الاجتماعي وإعادة بعث التنظيم الاجتماعي وتكريس الولاء للمكتسبات المتوارثة وطرائق الاحتفال والعيش المؤسسة وفقا لنمط الاعتقاد والتصورات الاجتماعية والمنفعة المراد الحصول عليها(دنيويا وأخرويا)، وبذلك فالطقوس تتصل بالديني لترسم معالم المقدس وتموضعاته داخل الفضاءات الاجتماعية المختلفة وتكرس لفكرة عدم المساس بها أو التعدي عليه. حيث" تدل المعطيات التاريخية والأنثروبولوجية على سعي الإنسان منذ القدم لتطوير تقنيات وممارسات ذات طابع ترفيهي بهدف الوصول إلى حلول للضغوط النفسية التي تواجهه، ولكن بعض هذه الممارسات التي عبرت التاريخ والتي تبدو لنا اليوم ترفيهية لم تكن كذلك يوم نشأتها، إذ طقوس بعض هذه الممارسات ترتبط بهاجس الإنسان في الاحتماء من المجهول ومن الفشل، وذلك بإيجاد تقنيات لتقنين العالم، وللتحكم في مصيره."[12] ومنه فالطقس الديني حسب إميل دوركايم يتمثل في" مجموع القواعد والممنوعات التي يتخذها الإنسان وتتخذها الجماعات في تعاملها وتصرفها مع ما تراه مقدسا."[13]

كذلك تتصل الطقوس عبر اليومي بتلك الممارسات التي تكشف في مضامينها عن السلوكات ذات الطابع العنيف والسلبي تجاه(الذات والآخر)، ونشير بالتحديد هنا إلى الأفعال التي لها صلة بالسحر كنموذج للعنف الممارس وكخاصية تبرز صور الصراع الاجتماعي اليومي بين الأفراد، فالسحر في مضمونه يعبر عن كل السلوكات والممارسات غير مألوفة أو غير مرغوب فيها أو التي لها دور في الإخلال بالنظام الاجتماعي والتي تكون فردية في أهدافها وغاياتها، بمعنى أن الطقوس السحرية تحيل إلى الفعل الفردي الذي يعبر في مضامينه عن(النجاسة والدنس)، أو الخلل الذي تظهر معالمه عبر ممارسات يلجأ إليها(الفرد أو الساحر)، والسحر أصبح اليوم يعتبر حالة معاشة تساير حياة الفرد حيث" يرتبط السحر في التراث الشعبي الجزائري بالعمليات السحرية التي تهدف إلى التحكم بالعالم المحيط بنا، وفي هذا السياق يقول أخميسAkhmise أن السحر يعطي للكائن البشري قوة مؤثرة، تثمنه وتعطيه إرادة قوية تعجز عنها الأدوية والعقاقير. وتتضمن الممارسات السحرية، عددا من العمليات ذات الأهداف المختلفة، إذ تبدأ من غاية بسيطة كالإغراء وتصل إلى حد التسميم والقتل."[14]

تساهم الطقوس السحرية في إحداث اضطراب اجتماعي تتوضح معالمه في صيغ مختلفة من المرض(النفسي والاجتماعي)، الذي يصيب الفرد والجماعة ويعمل على تفكيك الروابط الاجتماعية، واليوم نشهد انتشار واسع لهذه الممارسات السحرية في الوسط الجزائري فالسحر أصبح حالة معاشة وخاصية تميز الثقافة في ظل تباين نمط

الممارسات وطرائق الاستخدام، كون أن هذه الممارسات اعتبرت مسببة للمرض في صيغه المختلفة حيث،" أن واقع حياة الناس يبرز انتشار أنماط العلاج التقليدي بشكل كبير وواسع بين فئات المجتمع الجزائري فكثيرا ما تطلعنا الجرائد اليومية، وتقارير بعض المصالح الصحية، بالانتشار الواسع لظاهرة الشعوذة تحديدا واعتقاد الأفراد بسلامة هذا النمط من العلاج، فيرونه الملجأ للتنفيس عن الضغوطات التي يعيشونها رغم أننا نعيش في مطلع الألفية الثالثة التي من أهم مميزاتها أنها قرن العلم والمعرفة والانتشار الواسع لتكنولوجيا والإعلام ولعل من الأسباب المفسرة لانتشار الشعوذة اعتقاد الأفراد بنجاعتها."[15] ويرى الباحث الأنثروبولوجي ليفي ستروسLevi. Strauss أن:" للسحر وظائف، فمن خلال بعض أبحاثه ذكر أن للسحر والشعوذة وظائف تؤديها وتكون سببا في استمرارها، فكان قد عقد مقارنة بين الشعوذة وبين العلاج الثماني أو فك الطلاسم السحر وبين التحليل الذي يجريه المحلل النفساني، فرأى منطقية في العلاج الأول."[16] ما يمكن إضافته، هو أن الطقوس تتموضع بين الديني والسحري لترسم معالم الواقع المعاش للأفراد وتكشف عن رمزية هذه الطقوس المتداولة وعوامل ترسخها في وعي أفراد المجتمع، كما أن هذه الطقوس تشرح العلاقة الاتصالية بين الجماعات الممارسة لها على المستوى(**الجمعي والفردي**).

✓ 1-5 الطقوس والخصوصية الثقافية:

باعتبار الطقوس عنصر ثقافي تمتزج فيه الجوانب المادية واللامادية فهي تشكل مصدرا مهما في رصد خصائص الاختلاف عن الآخر، وقد كشفت الدراسات الأنثروبولوجية التي أجراها رواد وعلماء في المجتمعات الإنسانية عن جوهر العناصر الثقافية ودورها في تجسيد مبدأ الخصوصية(الذاتية والاجتماعية والثقافية)، فالاختلاف عن الآخر يتمظهر عبر مصادر ثقافية مختلفة تشمل(الجوانب الاجتماعية والثقافية)، وتكشف بذلك عن نمط الثقافة وخصائصها وسماتها، فالطقوس الممارسة في الاحتفاليات والمناسبات والروتين اليومي تبرز صور من الخصوصية الثقافية ومسألة الاختلاف(فما دمت مختلفا عن الآخر في لغتي فأنا كذلك أختلف عنه في ممارستي لشعائري الدينية والاجتماعية)، ودراسة هذا الاختلاف قادت علماء الأنثروبولوجيا لإجراء دراسات حقلية لاستكشاف وتشخيص مواضع هذا التباين وعوامله وتجلياته وعلاقته بالبناء الاجتماعي للمجتمع حيث أن" البناء الاجتماعي هو النظم الاجتماعية أو الجماعات الاجتماعية المستمرة في الوجود بحيث تستطيع الاحتفاظ بكياناتها كجماعات رغم التغيرات التي تحدث للأفراد الذين يكونون تلك الجماعات فلكل مجتمع صورة أو نمط معين نصفه أنه نسق أو بناء يعيش فيه أفراده وينزلون على مستلزماته وكلمة بناء هنا تعني التماسك والتوافق بين أجزاءه إلى الحد الذي يمكن تجنب التناقض الصارخ أو الصراع المكشوف وإن البناء يتمتع بدرجة من الديمومة أكثر مما تحظى به معظم الأشياء العابرة السريعة في الحياة الإنسانية إلى الحد الذي قد لا يفطن أفراد المجتمع نفسه أن لمجتمعهم بناء مميزا."[17]فتعبيرية الطقوس عن الخصوصية الثقافية تؤسس لمفهوم الهوية(الاجتماعية والثقافية)، في كون أن هذه الممارسات تساهم في صياغة الهوية لدى الأفراد والجماعات على نحو يجعلها مختلفة في(نشاطاتها واحتفالياتها)، فالمجتمع الجزائري يحتضن طقوس كثيرة تتخلل الحياة الاجتماعية لأفراده وتعكس الإرث المتناقل إلينا عبر التنشئة والتطبيع الاجتماعي، وبذلك يمكن القول أن الطقوس تكتسح الحياة اليومية Everyday life للأفراد فلا يخلو

جانب من جوانب الحياة الاجتماعية إلا ويكون للطقس حضوره بنتائجه الظاهرة والمستترة." فالممارسات والنشاطات اليومية والعادات والأعراف الجمعية، تتحدد وفق الثقافة التي تسود المجتمع، حتى الأطر التفسيرية والفكرية، تكون محددة ثقافيا. وهو ما يصنع الفرق بين جماعة اجتماعية وأخرى، أو بين مجتمع وآخر، وعليه فإن التمثلات والتصورات الاجتماعية، بل والرأسمال الرمزي المنتج في المجتمع حول موضوعات مثل: الموت، المرض، السعادة... تخضع للنمط الثقافي الذي ليس بالمتماثل والموحد بين كل المجتمعات في العالم."[18]

✓ 2- الطقوس والفعل الاجتماعي:

تدرس السوسيولوجيا ضمن مجالات بحثها واهتماماتها مجموعة من القضايا تحاول من خلالها توضيح طبيعة الأساليب الاجتماعية المستخدمة من طرف الأفراد لتكيف مع الظروف والأوضاع التي تطرحها البيئة الجغرافية والاجتماعية هذه الأساليب تجسد عبر استمراريتها معنى الأفعال والسلوكات التي تصدر عنهم ضمن إطار الحياة الاجتماعية، حيث يرى عالم الاجتماع جورج زيمل في كتابه(علم الاجتماع)، أن" موضوع علم الاجتماع هو دراسة أفعال الأفراد في شكلها التفاعلي أو التواصلي أو التبادلي. حيث تتوقف السوسيولوجيا عند مختلف الروابط والعلاقات الاجتماعية التي تربط بين الأفراد، ضمن سياق تفاعلي معين. أي أن السوسيولوجيا في نظر زيمل تهتم بدراسة التفاعل الاجتماعي أو التآلف أو التآنس الاجتماعي الذي يتخذ طابعا ديناميكيا، ويعني هذا أيضا ملاحظة أفعال الأفراد المتفاعلة، ووصفها بدقة لمعرفة الدلالات التي تحملها اجتماعيا وتأويلها في سياق مجتمعي معين."[19] حسب الباحث فالأفعال التي تصدر عن الأفراد في وضعيات مختلفة إنما تعكس نوع الأهداف المسطرة من طرفهم وهنا تتخذ هذه الأفعال صيغة تفاعلية بمعنى أن ما يصدر عن الفرد في السياق الاجتماعي تتحدد معالمه في تأسيس شبكة من العلاقات الاجتماعية أو تحقيق الانتماء إلى نسق معين ضمن نمط من الممارسات والنشاطات التي تجسد معنى الفعل لدى القائم به(أي الفرد)، فنجد أن الأفراد يتفاعلون مع بعضهم البعض لوجود قضايا ومصالح مشتركة لديهم، أي أن ما يتشاركه الأفراد في حياتهم اليومية يعبر عن صيغة مختلفة من التفاعل كحتمية اجتماعية وكنموذج توصيفي يمكن الباحث من فهم وتأويل الفعل شكلا ومضمونا. حيث يميز جورج زيمل في هذا الصدد "بين مضمون التفاعل الاجتماعي وشكله، ومن هنا يتمثل مضمون التفاعل في مختلف الدوافع والحوافز والضغوطات العضوية والنفسية التي تدفع الأفراد وتحركهم، بشكل من الأشكال، للتفاعل فيما بينهم داخل سياق مجتمعي معين. ويتخذ هذا المضمون التفاعلي شكلا معينا ومن هنا، فالواقعية الاجتماعية الناتجة عن التفاعل الاجتماعي لا يمكن الفصل فيها بين مضمون التفاعل وشكله. ومن هنا، إذا كان مضمون التفاعل هو الحافز، أو المنفعة، أو المصلحة أو الغاية، أو السبب، فإن الشكل هو صيغة التفاعل وطريقته وهيئته الأداتية والإنجازية."[20]

تتحدد مضامين عملية التفاعل الاجتماعي عبر نمط من الممارسات والنشاطات ذات الطابع الاجتماعي والثقافي فهي تكشف عن طبيعة تنظيم الأفراد لحياتهم اليومية حيث تتجسد تلك الممارسات في إطار ما يعرف بالطقوس Rites التي تعبر في جوهرها عن مجموعة من الإجراءات والأفعال المتكررة تتخذ صفة اليومي والروتيني عندما يتعلق الأمر بما يقوم به الأفراد كل يوم، ومنها ما يتم إحيائه في المناسبات والاحتفالات الدينية والاجتماعية

الموسمية. والطقوس كممارسات تكشف عبر تجلياتها أفعال الأفراد وسلوكاتهم ذات النتائج المقصودة وغير المقصودة، وحسب الباحث محمد الخطيب فالطقوس" هي إبداعات ثقافية بالغة الإتقان تقتضي ترابط أفعال وأقوال وتصورات أعداد كبيرة من البشر على امتداد أجيال عديدة."[21] فالطقوس ضمن سياق ممارستها تشكل مصدر لفهم الفعل الاجتماعي في إطاره المتزامن، لذلك يعتبر علماء الاجتماع أن دراسة الأحداث اليومية موضوعات جديرة بالاستقصاء لأسباب منها:" تبين أشكال التفاعل الاجتماعي، الذي يعكس بدوره الجانب الأكبر من نشاطات الحياة اليومية، لاحظ مثلا كيف ترتب أمورك يوما بيوم أو أسبوعا بأسبوع أو سنة بعد أخرى، كيف تنهض صباحا لتذهب إلى عملك جامعتك/ ثم تعود وتمارس واجباتك ومواعيد طعامك ونومك أي أنك تقوم بأنماط سلوك متماثلة في وتيرة معينة، حتى وإن حدث(اختراقات)، مثل التخرج أو البدء بعمل جديد أو الارتباط بشريك، فإنه سرعان ما نعود إلى الروتين ذاته، فمن أوجد هذه السيرورة وكيف؟"[22] تبين مظاهر إعادة التشكيل للواقع، من خلال ما يبتدعه البشر ويبتكرونه من أفعال خلاقة تسهم في إعادة تشكيل واقعهم مما يفرض أنماط سلوك اجتماعي جديدة، كحال الطلاب الجدد الذين ينزلون من قراهم إلى المدن الكبيرة كيف أنهم مع الوقت تتغير بعض سلوكياتهم لجهة عادات طعامهم/طريقة تخاطبهم/ نمط علاقاتهم بالآخرين/ شكل لباسهم إنهم يغيرون ويعيدون تشكيل تصوراتهم كي لا يبقوا غرباء."[23]وبذلك يكون للطقوس كمحددات للفعل الاجتماعي خاصية إبراز كيف يتأسس مفهوم التفاعل الاجتماعي بين الأفراد ونوع الأساليب والوسائل التي يوظفونها لتحقيق ذلك وحسب الباحث Rappaport "فالطقوس كممارسات تتميز بأنها الفعل الذي يتم بشكل رسمي، نمطي، متكرر." [24]

يتخذ الفعل الاجتماعي صورة أخرى تتمثل في كونه يعكس نمط الاتصال بين الأفراد، حيث أن هؤلاء يتواصلون عبر صيغ مختلفة تمتزج فيها الجوانب(الشفوية المنطوقة والجوانب غير الشفوية التي تتجسد عبر التواصل غير كلامي). يعتبر الحدث الكلامي Speech act صورة الأولى ضمن إطار الاتصال الوجاهي الذي يجمع الأفراد في مواقف مختلفة، فالكلام والحوار والمحادثات نماذج تعكس جوهر وطبيعة المقاصد التي يسعى إليها الفرد ، حيث يتحدد هنا الفعل بوجود علاقة اتصالية تجمع الأفراد في مواقف مختلفة، فالاتصال يعني فعل إرسال واستجابة والتماثل مع الآخر عبر أساليب مختلفة، فالاتصال من المنظور الأنثروبولوجي هو" تجربة أنثروبولوجية قبل كل شيء، لأن الاتصال هو حقيقة في الواقع ونموذج ثقافي في حد ذاته، وهو أمر محسوم بالنسبة للأنثروبولوجيين، فأن تتصل هذا يعني أن تبادل شيئا ما مع الآخر، فلا يوجد وببساطة حياة فردية أو جماعية بدون اتصال، وكل تجربة شخصية أو تجربة أي مجتمع تقتضي تحديدا لقواعد الاتصال، وبما أنه لا يوجد أناس بدون مجتمعات، فمن الطبيعي أن لا يوجد أي مجتمع في غياب الاتصال. الاتصال هو تجربة أنثروبولوجية، حيث يؤكد علماء الأنثروبولوجيا والمؤرخون على أنه لم يسبق وأن كان هناك اتصال لذاته، فالاتصال كان دائما مرتبطا بنموذج ثقافي، بمعنى عبر تماثل الآخر."[25]يشكل الاتصال صورة الفعل الاجتماعي عبر تجلياته المختلفة، فأن نتصل يعني هذا أننا بصدد القيام بفعل معين يجعلنا في موضع نستخدم فيه أساليب معينة نسعى من خلالها لتبليغ رسائلنا للآخر، وقد حظي موضوع الاتصال باهتمام كبير من قبل علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا نظرا لكونه مصدر

يتحدد وفقه نموذج الفعل الاجتماعي في سياق معين. وكان للباحث إرفنغوفمان إسهام كبير في دراسة وتوضيح معالم الفعل الاتصالي من خلال دراساته(النظرية والتطبيقية)، التي كشفت عن رمزيات الاتصال كفعل وكنموذج توصيفي للسلوك الاجتماعي اليومي والروتيني فبالنسبة لغوفمان" فإن التفاعلات الاجتماعية تصنع نسيج النظام الاجتماعي لأنها مؤسسة على معايير، ومن بين كل هذه التفاعلات فضل غوفمان(المقابلة اليومية الفردية)، التي يعتبرها بمثابة الخيط الناقل(أو السلك الناقل)، للتفاعلات الاجتماعية. وبالنسبة إليه فإنه أثناء هذه اللقاءات اليومية تتعزز الرهانات الاجتماعية الأكثر إغناء للتعليم فهو يشبه العالم بالمسرح الذي توزع فيه الأدوار الاجتماعية ومنه نقوم بتحليل طقوس الحياة الاجتماعية اليومية لنلاحظ بأن تموضع الجسد أساسي أثناء اللقاءات في الزمان والمكان، وبأن كل فرد يتموضع بطرق عديدة أثناء العلاقات الاجتماعية."[26] ويضيف غوفمان" أن الفاعل في المجتمع يعاين وينقل ويجذب باستمرار، ويصف وضعية وجود الفرد وسط أفراد آخرين في المجتمع بالقول، عندما يوضع الفرد في حضور أشخاص آخرين، فإن هؤلاء الأفراد يبحثون عن الحصول على معلومات تخصه، أو يقومون بتبليغه بالمعلومات التي تكون بحوزتهم، فهؤلاء يقلقون من نظامه الاجتماعي والاقتصادي، قلقون من فكرة التي يصنعها عن نفسه، من كفاءته ونزاهته، وقضايا أخرى كثيرة، وهذه المعلومات أو المعلومة لا يبحث عنها لذاتها، ولكن لأسباب عملية، فهذه المعلومات تساهم في تحديد الوضعية، من خلال تمكين الآخرين من توقع ما ينتظره منه شريكه منهم، وبالتالي ما يمكن أن ينتظرهم."[27] حسب غوفمان فالفرد يتواصل بشتى الصور والأساليب التي تسمح له بتقديم ذاته للآخر والتماثل معه في مناسبات وظروف معينة يبني وفقها مقصدية الاتصال شكلا ومضمونا. **وباعتبار الطقوس** تنظيم إجرائي يقوم به الأفراد والجماعات لأغراض معينة ومنافع خاصة وعامة، فإنها(أي الطقوس)، تشكل نموذج يتأسس وفقها فعل الاتصال(التحضير والممارسة والاحتفال)، حيث أن الطقوس تشكل روابط وأساليب لها دور في شرح مضمون العلاقة أو الحدث الاجتماعي الذي يمارس ضمن الإطار اليومي أو الحدث الذي يتم إحيائه عبر المناسبات والاحتفالات الموسمية، وهنا نشير إلى أن هذه الممارسات تعكس المعيش اليومي في ظل وجود غايات ومقاصد يسعى الفاعل الاجتماعي لنيلها والحصول على مباهجها ومنافعها، فحسب غوفمان" فالناس كائنات طقوسية بكل امتياز ولا يمكنهم العيش معا إلا بواسطة طقوس تنظم مبادلاتهم الرمزية المختلفة. فالمجتمع مسرح يومي تؤدي فيه الأدوار منتظمة وفق طقوس تفاعلية لا تستوي الحياة الجماعية بدونها، وضمن هذه (اللعبة)، يملأ كل فرد موقعا له ضمن مسرح المكانات، محافظا خلال ذلك على مقامه ومكانته أو على ما يسميه غوفمان ب(ماء الوجه)، فالمحافظة على هذا الماء أساسية ضمن قواعد التفاعل البشري، والحياة الجماعية إنما تنهض على ضروب من المجازات المسرحيةالتي تؤدي وفقها التفاعلات في الحياة اليومية."[28]

ما يمكن إضافته، هو أن الاتصال كنسق اجتماعي يكشف أهم الطرق والأساليب المساهمة في تحقيق تواصل يومي ومستمر عبر(السياقات الزمانية والمكانية)، والتي تحيل بدورها إلى أن عملية(الاتصال)، تساهم كغيرها من العمليات الاجتماعية في تحقيق التكامل الاجتماعي، عبر نمطية الوظائف التي يؤديها(الاتصال)، وهنا نؤكد على أن فعل الاتصال يرتكز على رموز متعارف عليها لدى الجماعة، فالطقوس عبر ممارستها تؤسس لنسق اتصالي تتوزع عبر صيغ تفاعلية متباينة تجمع في ثناياها(الجانب القولي والفعلي)، في الممارسات، فالفرد يمارس عاداته

وتقاليده عبر الامتثال لتمظهراتها الطقوسية التي تشرح كيفية اتصال الفرد بجماعته الانتمائية، فالامتثال لثقافة المجتمع تعبر عن نمطية الاتصال وتشرح أساليب تفاعله في الوسط الاجتماعي(تقليدي كان أو عصري)، ومنه فالاتصال لا ينحصر في مجال معين عبر صيغ المتعارف عليها بل يمتد ليشمل(الطقوس والشعائر)، التي تسجل حضورها عبر اليومي والروتيني.

يتخذ الفعل الاجتماعي صيغة أخرى تشرح كيف يشرع الأفراد والجماعات في تنظيم شؤونهم اليومية، تتمثل هذه الصيغة في كون أن الفعل الاجتماعي هو فعل تبادلي Exchangely ، مؤسس وفق مبادئ ومقومات يضع الفرد أو الجماعة شروطها ومحدداتها، بمعنى أن أفعالنا أو سلوكاتنا اليومية تعبر عن وتيرة التبادلات التي تقوم على وجود مقاصد(المنفعة)، في مقابل تكلفة قيام بذلك الفعل. فممارستنا اليومية هي تعبير عن تبادل ليس بضرورة أن يكون هذا التبادل مبني على(المنفعة المادية)، بل يتعدى ذلك ليشمل ما هو رمزي في الحياة الاجتماعية، فمادام التبادل يعني السعي لتحقيق المنفعة في مقابل تكلفة اجتماعية، فإن الحياة الاجتماعية بصورها تعكس عملية التبادل الاجتماعي." يرى أصحاب نظرية التبادل الاجتماعي أن الإنسان يتصرف بشكل منطقي وعقلاني، فكل إنسان يضع أمامه مجموعة من الأهداف ويحدد لنفسه أكثر الوسائل كفاءة لبلوغ هذه الأهداف ويضع الإنسان غيره من أعضاء المجتمع في اعتباره أثناء سعيه لتحقيق أهدافه، حيث أن هؤلاء الأعضاء يؤثرون أو حتى يتحكمون في عملية سعي الإنسان لتحقيق أهدافه، وهذا الموقف هو الذي ينتج العلاقة الأساسية للتبادل، ويصبح السلوك بهذا المعنى سلوكا اجتماعيا، كما يتخذ السلوك شكل التبادل، حيث أن الأشخاص الآخرين الموجودين في الوسط الاجتماعي يملكون المصادر أو الموارد المختلفة ومن ثم فإننا نتبادل القيود بالسلع والعمل بالنقود، كما نتبادل المشاعر والعواطف ويجد الناس أنفسهم دائما في مواقف اجتماعية تبادلية، حيث يتبادلون السلوك والخدمات ويتبادلون الدعم العاطفي والانفعالي."[29] إن فعل التبادل يشرح طبيعة العلاقة بين الأفراد والجماعات في سياق اجتماعي عبر ثنائية(العطاء والأخذ)، أو المنح والاستلام أو بتعبير مارسيل موس[30] Obligation to give and obligation to recieve فالأفراد يقومون بعملية التبادل عبر أكثر من صيغة تتجلى صورها عبر اليومي من خلال(التحية، الابتسامة، اجتماع حول المائدة، الاحتفالات ونمط اللباس)، وغيرها من الصور الأخرى التي تشرح الفعل التبادلي كسياق لفهم الفعل الاجتماعي، وقد حظي مفهوم التبادل الاجتماعي باهتمام كبير من قبل باحثين وعلماء في الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع، الذين سعوا من خلال دراساتهم(النظرية والتطبيقية)، لتسليط الضوء على أهمية فعل التبادل بين الأفراد والجماعات التي كانت محل دراستهم الميدانية لغرض استقصاء العناصر التالية:(وصف عملية التبادل بين الأفراد في أوساطهم وما هي أهم مقوماتها وشروطها، تصنيف عملية التبادل عبر إدراج أهم أشكالها وصورها داخل الوسط الاجتماعي، تحديد العناصر المؤسسة لعملية التبادل في الوسط الاجتماعي ونركز هنا على الأفراد، الجماعات والعناصر الثقافية، تسليط الضوء على تبعات ونتائج عملية التبادل في الوسط الاجتماعي على مستوى العلاقات الاجتماعية، المكانة والهيبة، المنفعة ونمطية العيش)، يرى الباحث الأنثروبولوجي مارسيل موس أن" الظاهرة المجتمعية الكلية تتصف بكونها ظاهرة تمس كل مؤسسات المجتمع، وتغزو مختلف جوانب حياة الأفراد الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، ولا يمكن تفسيرها إلا في ضوء

تكامل الكل، وذهب إلى اعتبار الهبة ظاهرة اجتماعية كلية فهي تمثل ترابطا بين ثلاث التزامات: العطاء(تقديم الهدية)، وقبولها، والرد عليها بإعادة الشيء الموهوب ذاته أو يماثله في القيمة أو أعلى منه قيمة. وهذه الالتزامات المترابطة تدفع الهبات سواء كانت أشياء أو خدمات أو أشخاص نحو العودة إلى مانحها الأصلي، لأنها تشكل امتداد له. وهذا ما يضفي على علاقة الواهب والموهوب له صفة الازدواجية، بحيث تنشأ علاقة تضامن وتعاون نظرا لاقتسام الأملاك عن طريق تقديمها كهدية، أما من جهة أخرى، تنشأ علاقة تمايز وتبعية إذ يصبح الموهوب له مدين للواهب إلى وقت الرد عليها."[31] يتبادل الأفراد ضمن السياق الاجتماعي عناصر ومصادر مختلفة لها خاصة التعريف بطبيعة العلاقة التي تجمع بين الأفراد، فالتبادل هو الممارسة المبنية على المنفعة والتكلفة ونتاج هذه العملية، وبدورها تشكل الطقوس كممارسات متكررة صورة أخرى لفعل التبادل بين الأفراد فممارسة الطقوس تعني أننا بصدد عملية تبادل تتجلى مظاهرها عبر العادات اليومية وإحياء التقاليد التي تصطبغ بالطقوس الروتينية والموسمية، فالعادات اليومية تعبر عن مجموعة السلوكات التي تحمل دلالات معينة منها(مساهمتها في تنظيم شؤون الأفراد، التكيف مع الظروف المستجدة، الوقاية والعناية الصحية والجمالية بالجسد)، وغيرها من الممارسات اليومية التي تعرف حضور قويا للطقوس كأسلوب تبادلي ضمن نطاق الأسرة والأوساط الاجتماعية الأخرى، كذلك نجد للطقوس خاصية تبادلية عندما يتعلق الأمر بإحياء التقاليد خصوصا في الاحتفالات الاجتماعية والدينية التي تصف بدقة صيرورة عملية التبادل عبر الطقوس التي تساهم بدورها في توثيق الروابط الاجتماعية بين الأفراد، ويمكن إدراج مثال حول الاحتفال بالأعياد كعيد الفطر مثلا، فالأفراد والجماعات تمارس طقوس تتعدد أهدافها ومضامينها لعل أبرزها(إحياء الشعيرة الدينية، تبادل الزيارات التي تصاحبها تبادل للمأكولات والتعابير التي تحمل في ثناياها رمزيات معينة(كالفرح مثلا)، وبذلك فالطقوس تعبر عن علاقة تبادلية بين الأفراد والجماعات وبين المكان الذي يشغلونه، كما أن الطقوس تعتبر وسيلة ربط بين الفرد وتراثه الاجتماعي." فما يميز الإنسان ويعطيه خصوصية وجودية هو القدرة التي يمتلكها على عقل الأشياء وإنشاء الرموز وشبكة المعاني، فالعيش بالرموز وتوظيفها فعالية إنسانية بكل امتياز بها يعيش الفرد ويؤسس وجوده، ويبني عالمه المادي والمعنوي ويرسي نظام الأشياء والعلاقات لا تدرك إلا من خلال استعمالاتها ومما تتضمنه من معنى في حياتهم ومما تتخذه من دلالة في متخيلهم الجمعي، وكما قال بيار أنصار فإن المجتمعات سواء الحديثة منها أو التقليدية أو تلك المسماة بلا كتابة، تنتج دوما متخيلات شتى بها وتبني من خلالها رموزها وصورها عن نفسها والأشياء والعالم، بواسطتها تحدد أنظمة عيشها الجماعي ومعاييرها الخاصة."[32]

✓ **الخاتمة:**

كإجابة عن الأسئلة المطروحة يمكن القول، أن الطقوس كممارسات وإجراءات تنظيمية شكلت أبرز الأساليب والمصادر التي تم توظيفها من طرف الأفراد والجماعات لتحقيق تكيف وتكامل اجتماعيين مع ظروف وأوضاع البيئة الفيزيقية والاجتماعية حيث، أن هذه الممارسات شملت مختلف جوانب الحياة(الدينية، العائلية والقرابية، الاقتصادية، السياسية والثقافية)، مجسدة بذلك معنى الاستقرار الاجتماعي المبني على إسهام العناصر الثقافية في تأدية وظائفها بشكل إيجابي ومعبرة في نفس السياق عن صيرورة عملية التطور والتحول في البنيان الاجتماعي،

فالطقوس في إطار ممارستها المتزامنة عبر(اليومي والموسمي)، ساهمت في تحقيق مجموعة من الأهداف منها(تحقيق إشباع وتكيف اجتماعي، التعبير عن الخصوصية الثقافية، تفعيل الاتصال والتفاعل بين الأفراد والجماعات عبر تكرار ممارستها، التعبير عن طبيعة العلاقة بين ما هو ديني وما هو سحري)، أي أن الطقوس عبر تكرارها رسمت معالم الواقع المعاش في إطار نمط ثقافي معين. فالطقوس عبر تمظهراتها في الإطار اليومي شكلت سياق لتصفح الحياة الاجتماعية من خلال وتيرة الممارسات والنشاطات المختلفة التي اعتبرت هي الأخرى أساسية في فهم الفعل الاجتماعي شكلا ومضمونا، أي أن الطقوس هي تعبير مباشر عن مقاصد وطبيعة الأهداف التي يسعى لنيلها الفاعل الاجتماعي في ظل ثنائية(الثبات والتحول)، كميزة تتسم بها الثقافة داخل مجتمع معين.

✓ **قائمة الهوامش:**

1- عبد السلام بشير الدويبي، علم الاجتماع الطبي، ط1، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2006، ص59.

2- العربي فرحاتي، أنماط التفاعل وعلاقات التواصل، ط1، الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية، الجزائر، 2010، ص57.

3- جمال معتوق، الأنثروبولوجيا- الفروع والمداخل النظرية، ط1، دار الكتاب الحديث، الجزائر، 2016، ص342-343.

4- راشدي وردية، الطقوس القبائلية بين خصوصية النسق الاتصالي ورمزية المضمون الدلالي، المجلة الجزائرية للعلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الجزائر، العدد(08)، 2017، ص153.

5- راشدي وردية، المرجع السابق، ص154.

6- العربي بوعمامة، في أنثروبولوجيا الاتصال- السياقات والمفاهيم، ط1، ألفا للوثائق، الجزائر، 2020، ص125.

7- فوزية دياب، القيم والعادات الاجتماعية، ط2، دار النهضة العربية، بيروت، 1970، ص102.

8- طلال عبد المعطي مصطفى، الضوابط الاجتماعية وسلوك الأفراد في النظريات الاجتماعية، مجلة المعرفة، سوريا، العدد(377)، 1995، ص55.

9- بن عبد الله حاج حمو زهية، الجسد والجندر، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران، 2015، ص190.

10- ساباينوأكوافيفاوإنزو باتشي، علم الاجتماع الديني، ترجمة عز الدين عناية، ط1، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، 2011، ص70.

11- منصف المحواشي، الطقوس وجبروت الرموز- قراءة في الوظائف والدلالات ضمنية، مجلة إنسانيات، مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران، الجزائر، العدد(49)، 2010، ص24.

12- فاطمة ديلمي، لعبة البوقالة- الطقس والشعر والمرأة، منشوراتCNRPAH، الجزائر، العدد(09)، 2009، ص09.

13- Emil Durkheim, les formes élémentaires de la vie religieuse- le système totémique en Australie, éd P.U.F, quadrige, 1979, p51.

14- L'khaidir aicha, maladie, croyances et thérapeutiques, le cas de Casablanca, thèse nouveau régime en ethnologie, université de bordeaux, 1998, p08.

15- زرقة دليلة، أنثروبولوجيا الصحة والمرض، مجلة متون، جامعة سعيدة، الجزائر، المجلد العاشر، العدد(01)، 2018، ص153.

16- Claude Lévi Strauss, anthropologie structurale, paris, plon, 1973, p227.

17- محمد الخطيب، الأنثروبولوجيا الاجتماعية، دار علاء الدين للنشر، سوريا، 2008، ص52.

18- عواطف عطيل لموالدي، الطب التقليدي في المجتمع الجزائري بين الممارسة والتشريع- في سوسيولوجية الصحة في المجتمع الجزائري، تقديم نادية سعيد عيشور، ط1، حسين رأس الجبل للنشر والتوزيع، الجزائر، 2018، ص60-61.

19- جميل حمداوي، جورج زيملوالسوسيولوجيا التفاعلية www.Almothgaf.com

20- جميل حمداوي، جورج زيملوالسوسيولوجيا التفاعلية،

21- محمد الخطيب، الأنثروبولوجيا الثقافية، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق، 2008، ص60.

22- مأمون طربيه، علم الاجتماع في الحياة اليومية- قراءة سوسيولوجية معاصرة لوقائع معاشة، ط1، دار المعرفة للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت، 2011، ص22.

23- مأمون طربيه، نفس المرجع، ص22.

24- Roy a Rappaport,(1999).ritual and religion in the making of humanity, first published, united kingdom: press syndicate of the university of Cambridge, 1999, p 28.

25-Dominique Walton, penser la communication, éditions Flammarion, France, 1997, p68.

26- عبد العلي دبلة، مدخل إلى التحليل السوسيولوجي، ط1، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص244.

27- رضوان بوجمعة، أشكال الاتصال التقليدية في منطقة القبائل- محاولة تحليل أنثروبولوجي، أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر، 2007، ص80.

28-Erving Goffman, le mise en scène de la vie quotidienne- la présentation de soi, ed minuit- coll, le sens commun, 1973.

29- نظرية التبادل الاجتماعي WWW.B- **SOCIOLOGY.COM**

30- Marcel Mauss, the gifts- forms and functions of exchange in archaic societies, translated by Ian Gunnison, London, the university press, 1954, p 10.

31- جعفر نجم نصر، الأنثروبولوجيا التاريخية- الأسس والمجالات في ضوء مدرسة الحوليات الفرنسية دار أوما للطباعة والنشر والتوزيع، العراق، 2013، ص78-79.

32- عباس الزهرة، الهدية في المجتمع الجزائري- طبيعتها ودلالتها الرمزية، أطروحة دكتوراه، جامعة عبد الحميد ابن باديس- مستغانم، 2019، ص217.